لغات الأمم المتحدة : البابلية أم التكاملية ؟(*)

محمد ديداوي
منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية (اليونيدو)

مقدمة :

ما انفك الإنسان يشعر بضرورة إزاحة الحواجز اللغوية ليسهل عليه التخاطب مع غيره، إذ أدرك أن تعدد اللغات يقف سدا منيعا دون مبتغاه. وأتت عليه أزمنة كانت فيها الغلبة للغات معينة انتشرت رقعتها بفعل القوة أو حبّا في الاطلاع على المعارف. وبعد أن بدأ الإنسان يتحضر وبدأت تتوفر له الوسائل وتتقارب المسافات وتتزايد اللقاءات راودته فكرة اللغة الواحدة التي يفهمها الجميع وتيسر وحدة الكلمة لغة تكون «عالمية سهلة التعلم والنطق والكتابة، والأهم من ذلك، تعين على الفكر وعلى التمييز بين كل الأشياء بحيث يستحيل معها الخطأ». (1)

إن هذه اللغة بالذات هي اللغة الاصطناعية التي تصورها المفكرون وأرادوا لها أن تخدم الغرض.

هكذا وضع جون ـ فرانسوا سودر، في منتصف القرن التاسع عشر، «لغة موسيقية عالمية» سمّاها سولريسول ثم توالت الاقتراحات تلو الاقتراحات بعدئذ وطرحت فكرة الإنكليزية ـ اللاتينية (اللاتينية مع النحو الإنكليزي) و«الإنكليزية ـ الإفرنجية» (2) (مزيج من الإنكليزية والفرنسية).

وأتى الدكتور البولندي زامينهوف بفكرة الأسبيرانتو. وتعددت الاقتراحات من قبل ومن بعد. ومن هذه اللغات الاصطناعية (3) ادريانا وانتيرلنغوا وإداماتيك وأوربا وسيمبلو وفيفا

(*) إن الآراء الواردة في هذه الورقة آراء شخصية محضة.

واكسبريسو وموندولانغ، إلخ... بل إن بعضها اسمه مطول وغريب، مثل لغة الكاربوفوروفيلوس والآستيغونياغرافيانيك!

وجاء من اقترح فكرة اللغة شبه الاصطناعية، مثل لغة البيزيك (اللغة الأساسية)، التي أوجدها، في عام 1930، أوغدين وريتشاردز، والتي تستند إلى الإنكليزية.[4]

إلا أن هذه اللغات كلها لا ترتكز على قاعدة عملية. ولذا لم يكتب لها النجاح والبقاء. ومن ناحية أخرى، بذلت مجهودات لإحياء بعض اللغات، منها العبرية،[5] التي أحرزت تقدما ملحوظا في هذا الباب، واللاتينية التي اصطدم استعمالها العصري ببعض العراقيل. وفي المقابل، ظهرت على الساحة لغات وطنية، بدافع من القومية، تزاحم اللغات المتداولة، مثل الإنكليزية والفرنسية، بعد أن نالت بعض البلدان استقلالها و«احتلت [تلك اللغات] في كل مكان تقريبا مكان الصدارة المناسب لها. وبذلك أصبحت منافسا مخيفا».[6]

هناك إذن تناقض واضح بين هدف اللغة الواحدة، لأن التشتت اللغوي، أو البلبلة، «يؤدي أولا إلى ضياع الوقت وإهدار الطاقة وتبذير الأموال»،[7] ويعوق تقارب البشر، إن لم يعرفوا لغات بعضهم، من جهة، والنزعة القومية، لأن اللغة رمز الشخصية الوطنية والكيان المستقل، وفائدة التعدد من حيث الإثراء والتثاقف بين الشعوب، من الجهة الأخرى. ثم هل يكتب لمثل هذه اللغة الواحدة البقاء، أم أنها لابد وأن تتفرع وتتشعب، بعد أن تكون جامعة مجمعة، لأن من شيمة الناس الاختلاف والتميز؟

ها هي ذي المحافل الدولية، مثل الأمم المتحدة، تستعمل عدة لغات للوثائق والاجتماعات فما هو الوضع الناجم عن هذا التعدد؟

الأمم المتحدة : بوتقة لغوية

لا شك «أن التواصل الدولي ـ وهو أمنية لا خلاف عليها ـ لا يشترط، بل إنه لايحتم، وجود لغة دولية واحدة. إلا أنه يكاد الناس يتعارفون منذ زمان على أن هذا يشكل قاعدة مثالية».[8]

فمن الناحية العملية، تعتمد الأمم المتحدة ست لغات رسمية ولغات عمل، هي الإسبانية والإنكليزية والروسية والصينية والعربية والفرنسية، تمثل مجموعات ثقافية وحضارية.

وبينما تساهم تلك اللغات في التفاهم الدولي، في الاجتماعات والمؤتمرات، عن طريق الترجمة الفورية وخاصة الترجمة التحريرية، التي تلعب دورا أسياسيا في

التفاعل اللغوي ونقل المعارف، فإن لها سماتٍ تميزها وقضايا تنفرد بها.

فعلاوة على أن اللغة الإنكليزية خليط لغوي،[9] فإنها منقسمة إلى أربع فئات، هي البريطانية والأمريكية ولغات المستعمرات البريطانية السابقة والإنكليزية الدولية.

ولقد أصبحت تتبع، بخصوص الإنكليزية، «أساليب إعرابية جديدة ثورية...، لاتستند إلى الأشكال القديمة من [هذه] اللغة، برزت معالمها في السنوات العشرين الماضية».[10]

كما أن الإنكليزية «ما زالت تفتقر إلى سند نحوي مبني على الإنكليزية البريطانية المتكلم بها والمكتوبة ابتداء من سنة 1945».[11]

ومن ناحية أخرى، فإن «سخافات انشغال الأجيال السالفة بـ«الاستعمال الصحيح» قد مضت وولّت، وفي بعض الأماكن رجحت كفة الموقف المتمثل في تشجيع التساهل المفرط».[12]

وإن «التفاوت بين إنكليزية بلد ما وإنكليزية بلد آخر يظهر أنه لابد وأن يتزايد إلى حد بعيد».[13]

وفي حين أن اللغة الإنكليزية لها الأكاديمية البريطانية، التي أنشئت في عام 1902، وجمعية فقه اللغة، التي أعيد تنظيمها في عام 1842، والجمعية الإنكليزية، التي يراد منها «رفع المستوى الإنشائي والكلامي»[14] للغة، فإن هذه الهيئات لاتصدر أية فتوى وليست لها سلطة الاحتكام. هذا بالإضافة إلى «أن هناك ميلا عند الأنكلو ـ ساكسون إلى الاقلال من شأن الأكاديميات، وإن كانت منجزات الهيئات مثل الأكاديمية الفرنسية والأكاديمية الإسبانية أكثر بكثير مما هو معترف به عندهم»[15]. وهناك من يرى أن «استقرار الاستعمال سيحدده مستعملو اللغة أنفسهم لا الأكاديمية»[16] ولقد اختلف في الحكم على النوعية إلى حد أن ت.س. إيليوت اعتبر الصيغة الإنكليزية من الإنجيل الصادرة عام 1961 بأنها «عمل يتميز بمنتهى الركاكة».[17]

هكذا، فإن تعلم الإنكليزية لايخضع لسلطة سياسية وإنما من ضرورات الحياة المعاصرة التي أصبحت تهيمن فيها التكنولوجيا والعلوم، ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية تأتي في مقدمة المخترعين والمبتكرين.

وقد جيء بفكرة «الإنكليزية القاعدية»،[18] بحيث تكون:

ـ أسهل تعلما من الإنكليزية الطبيعية.

ـ وقادرة على التعبير عن دقائق

المعاني.

- ويمكن التوسع فيها عند اللزوم.

أما الإنكليزية الدولية التي تكتب بها جل الوثائق في منظومة الأمم المتحدة، فهي لغة غير أصلية عند كثير من الخبراء، وتقوم خلفيتها على عقلية غريبة على الإنكليزية. والمشكلة المطروحة بالنسبة لها هي عدم وجود سلطة أو معايير لتحديد مدى جودتها، لا سيما إذا نقل البلاغ بكامله، علما أن هذا هو المراد في الاجتماعات وفي الوثائق المحضّرة لها.

وإن هذا النوع من الإنكليزية جدير بالاهتمام، لاسيما وأنه أيضا لغة بعض المترجمين والتراجمة الذين ينقلون إلى الإنكليزية من لغاتهم، كالشأن عند العرب والصينيين، إذ قلما يكون غيرهم ملمين إلماما كافيا بلغتهم.

لذا، فإن التحرير والتنقيح مهمان للغاية ويجب دعم أقسام تحرير الوثائق، لتسهيل عمل المترجمين الذين يطلب منهم عدد معلوم من الصفحات يوميا.

وأما الفرنسية،[19] فمن الواضح أنها تتميز بنوع من الانتقائية، وهذا مرده إلى النظام التعليمي المحكم التنظيم والمتشدد (في الخارج، بالمقارنة)، على عكس أنظمة أخرى، وإلى النضال المستميت الذي يخوضه من يخشون على اللغة من الفساد والضياع.

وجلي أن المتفرنسين، في إفريقيا خاصة، يفوق مستواهم، في كثير من الأحيان، مستوى أهل الفرنسية، وهذا من مميزات الاستعمار الثقافي الفرنسي، الذي تغلغل في الصدور وجعل اللغة الفرنسية محط الاهتمام ومناط الإعجاب.

وهناك شخصيات سياسية إفريقية وعربية إفريقية بارزة مشهود لها بالبراعة اللغوية في الفرنسية إذ تسخرها رخاء حيث تشاء وتتحكم في دقائق معانيها وأفانين أساليبها.

كذلك، «فإن هذه اللغة ما زالت تحتفظ بخصائص دقة المنطق ووضوح الغرض، التي تميزت بها اللاتينية وخاصة اليونانية».[20]

وقد يتعزز وضع الفرنسية والألمانية في أوروبا بعد أن تتوحد.

وتبذل مجهودات كبيرة لدعم اللغة الفرنسية في المنظمات الدولية، منها على سبيل المثال، الملتقى الدولي حول الفرنسية في المنظمات الدولية، الذي عقد في باريس من 29 حزيران/يونيه إلى 1 تموز/يوليه 1987.

كما أن للفرنسية هيئات عديدة تصونها وتدافع عنها،[21] في مقدمتها المجلس الأعلى «للفرنكوفونية»، الذي

يرأسه رئيس الدولة الفرنسية شخصياً.

وتتمثل مشكلة الفرنسية، شأنها في ذلك شأن لغات أخرى، في ضرورة استيعاب سيل من المصطلحات الجديدة، كما أن هناك محاولة للتصدي للغزو الإنكليزي، الذي يسهله الاستعمال المشترك للحروف اللاتينية.

وفي حين أن اللغة العربية محكمة البنيان، اتسعت فاحتوت معجزة لغوية هي القرآن الكريم، يلاحظ أن بعض العرب قد أفسدوا استعمالها، فلم يرقوا إلى مستوى بيانها، بل أصبح فكرهم يتمحور حول النص،[22] منجذبا بموسيقية اللغة، إلى أن أصبح النص عند البعض هو الغاية وهو المرام. إلا أن هذه اللغة قد برهنت في الأمم المتحدة على قدرتها على مسايرة اللغات الأخرى، على يد مترجمين أكفاء، فأصبحت الوثائق تصدر في شتى ميادين العلم والتكنولوجيا بدقة وسلاسة إلى حد كبير.

وتعاني اللغة العربية، في كثير من الأحيان، من اختلال في ازدواجية اللغة ومن تأرجح العرب بين الرغبة في التعريب والرهبة منه. وقد يكون الحل في تدريس العلوم بالعربية مع دراسة المصطلحات والنصوص باللغات الأجنبية وتعلم لغة ثانية أو حتى ثالثة (بالنسبة للمغرب العربي، مثلا) وإدخال مادة الترجمة إلى الثانويات والجامعات. إلا أن هذا يستوجب توفر المواد المرجعية بالعربية والأطر اللازمة للتدريس. و«قد ظلت العربية الفصحى في كل مكان لغة العلم والأدب»... (23) «مما يؤكد وحدة العرب اللغوية ويعمل على التقريب بين النخبة منهم». (23)

وبالنسبة للعربية، وبدافع من الحماس القومي، قيل إن «اللغة العربية هي أصل اللغات في العالم»! (24) فإذا كان صحيحا أن هناك تفاعلا معروفا بين العربية واللغات الأخرى، فإن هذا الكلام في حاجة إلى برهان علمي رصين يقبله العقل، وإلا دخل في صف الحديث عن «الشيخ الزبير» (Shakespeare) الذي رد أصله إلى العرب!

وفيما يخص اللغة الإسبانية، فإن الفوارق بين لغة بلدان أمريكا اللاتينية وإسبانيا تشابه تلك التي بين اللغتين الأمريكية والبريطانية. و «ليست للجمهوريات الناطقة بالإسبانية فيما وراء المحيط الأطلسي أكاديميات مماثلة لأكاديمية إسبانيا فحسب، بل إن تلك الأكاديميات قد انخرطت جميعها في اتحاد، نظرا للاتجاه الطبيعي نحو شيء من التطور اللغوي المنفرد في مختلف تلك

البلدان (الذي يشجع ويستغل أحيانا لأغراض وطنية)». [25] إلا «أن النموذج والمقاييس مازالت تعتبر بأنها مترسخة في البلد الأم التاريخي». و «قد يذهب البعض إلى أن الإسبانية قليلة التوحيد، وأن لهجاتها متعددة وأن بعض القوى ترمي إلى جعل ما يسمى (الإسبانية)، فصيلة من اللغات عوضا عن لغة واحدة». [26]

وتجمع بين اللغات الست، مع استثناء الإنكليزية إلى حد ما، مشاكل توحيد المصطلح، والمصطلحات المستجدة والتخصص في الموضوع في ترجمته، إلخ، مع اختلاف في درجات المشكلات باختلاف اللغات.

وهناك ثلاثة اتجاهات في اللغة الصينية من حيث المصطلح: اتجاه الصين الشعبية وتايوان وهونغ كونغ.

تعدد اللغات

لا غرو أن التواصل بين متحدثي لغات الأمم المتحدة الست يقوم على أكتاف المترجمين والتراجمة. وأن تواجد هذه المجموعات الثقافية لا ريب أنه مثر على الصعيد الدولي ومفيد على الأقل لمعرفة عقلية الآخرين وتفهمها، ذلك أن اللغة مرآة لأفكار الشعوب وحضاراتها وأن اللغة الاصطناعية هي أقرب إلى استعمال الحاسوب منها إلى الإنسان.

قد يكمن الحل في تولي تعليم عدة لغات للصغار في سن مبكرة جدا، [27] إذ أن التعلم في تلك المرحلة من العمر هين وهو كالنقش على الحجر. لكن هذا المسعى باهظ التكاليف ويستلزم جحفلا من المربيات في البيوت ومن المدرسين. [28] ويبدو أن هذا النوع من التعليم إن نظم على الوجه اللائق وأحسن استعماله، ليس فيه ضرر على اللغة الأم عند الطفل. [29]

ويستدل من التجارب أن هذا التعليم كثيرا ما يكون ناجحا عند الجاليات المغتربة (أطفال الدبلوماسيين وموظفي الأمم المتحدة، مثلا)، عندما يتاح للطفل تلقن عدة لغات، لغة البلد المضيف ولغة أو لغتان في المدرسة، بالإضافة إلى اللغة الأم، مع بعض التحفظ، لأنه ما اجتمعت لغتان إلا وأدخلت إحداهما الضيم على الأخرى. [30]

وإن هذا النوع من الأطفال مجال خصب لاختيار مترجمي وتراجمة المستقبل، الذين يستطيعون التنقل بين لغات أساسية [31] على نفس المستوى تقريبا وبنفس المقدرة.

فإذا تسنى للأمم المتحدة تكوين صفوة من هؤلاء المترجمين والتراجمة، فإن الحاجز اللغوي سيزول تماما من على المسرح الأممي وسيهون التواصل بين

الشعوب، فضلا عن الثراء الحضاري بفعل التمازج. ولعل هذا الأمر هوالذي جعل الأمين العام للأمم المتحدة ينادي بـ «مكافحة كل نزعة إلى التماثل غير الخصب».(32)

ومن المسلم به أن «معظم النزاعات المعروضة على الهيئات الدولية راجعة إلى مشاكل التأويل بسبب ثقافات أو إديولوجيات خاصة».(33) فهل يمكن للغة الواحدة أن تجمع بين شتى الثقافات والإديولوجيات؟

ومن المفيد إجراء دراسة سوسيولوجية للمنظمات الدولية(34) لزيادة التفهم والتقارب.

الخاتمة

لا مندوحة من أن تظل اللغة الواحدة حلما بعيد المنال، لأن توحيد اللغة يعني توحيد البشر والثقافات، وقد يكون في هذا نوع من الإفقار الحضاري.

وإلى أن يحين ذلك الوقت، لابد من زيادة الاعتناء بمستوى استعمال اللغة والمصطلح وبالترجمة التحريرية والفورية بتحضير واختيار أنسب العناصر لهما، وزيادة تشجيع تعلم اللغات في المنظمات الدولية.

وبخصوص اللغة العربية قد يكون من المفيد إعلان سنة للتعريب، تقام فيها الندوات وتلقى المحاضرات وتكثف المجهودات في هذا المضمار على صعيد الوطن العربي بأكمله.

هوامش البحث

(1) ديكارت في رسالة وجهها يوم 20 تشرين الثاني/نوفمبر 1629 إلى الأمير ميرسين. عن Pierre Burney, Les langues internationales, collection "Que sais-je?", Presse Universitaire de France, 1966 إن الأمر يتعلق باللغة «الفلسفية» التي كان ينشدها ديكارت.
ولقد فكر فولتير وليبنيتس أيضا في هذا الموضوع.

(2) للمزيد من المعلومات انظر، مثلا، Pierre Burney، المرجع السابق الذكر.

(3) Pierre Burney، المرجع نفسه.

(4) V. I. A. Richards. Basic English and its uses, New work, V. W. Basic English, H. W. Wilson Co, New York, 1944 Norton and Co, 1943.

(5) انظر، مثلا، Edw. Yesheskeel Kutscher, Pub. Mod. Langu. Association, IX-57, no. 2 وتجدر الإشارة إلى أنه قد تم، في تشرين الأول، أكتوبر 1989، بمرسوم رئاسي، إعلان السنة العبرية 5750 سنة اللغة العبرية. وتصادف هذه السنة الاحتفال بالذكرى المئوية لإنشاء الأكاديمية العبرية. هكذا، شرعت لجنة اللغة العبرية، قبل مائة سنة، في مهمة إحياء العبرية بعد موات دام زهاء 2000 سنة.

(6) Pierre Burney، المرجع السابق الذكر.

(7) المرجع نفسه.

(8) Randolph Quirk. Style and communication in the English language, Edward Arnold, 1982.

(9) Pierre Burney، المرجع السابق الذكر.

(10) Robert Burchfield. The English language, Oxford University Press, 1985.

(11) المرجع نفسه.

(12) Randolph Quirk، المرجع السابق الذكر.

(13) المرجع نفسه.

(14) للمزيد من المعلومات، أنظر: Simon Potter, Our language, Penguin Books, 1976.

(15) Randolph Quirk، المرجع السابق الذكر.

(16) Robert Burchfield، المرجع السابق الذكر.

(17) جريدة «الصاندي تلغراف»، العدد الصادر يوم 16 كانون الأول /ديسمبر 1967.

(18) Randolph Quirk، المرجع السابق الذكر.

(19) للمزيد من المعلومات، أنظر: Haut Conseil de la Francophonie, Etat de la Francophonie dans le Monde, la Documentation Française, Paris, stélio Farandjis. Francophonie et humanisme, Editions Tougui, Paris, 1989.

(20) كلمة للسيد ليوبولد سيدار سنغور، الرئيس السابق للسنغال، أمام الملتقى الدولي حول الفرنسية في المنظمات الدولية، باريس، 29 حزيران/يونيه ـ 1 تموز/ يوليه 1987.

(21) للمزيد من المعلومات، أنظر، مثلا، Albert Salon. situation de la langue Française par pays, in: Une Langue: Le Français au-jourd'hui dans le monde, Marc Blancpain (éd.), Hachette, 1976.

(22) أنظر مثلا، محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، المركز الثقافي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1987 ومحمد الديداوي، قدسية الأصالة وحتمية المعاصرة، ورقة مقدمة إلى المؤتمر العلمي الأول، الكتابة العلمية بالعربية: واقع وتطلعات، بنغازي، 9 ـ 13 آذار /مارس 1990.

(23) Pierre Burney، المرجع السابق الذكر.

(24) جريدة «الرأي العام» الكويتية، العدد الصادر يوم 6 شباط/ فبراير 1990.

(25) Randolph Quirk، المرجع السابق الذكر.

(26) Pierre Burney، المرجع السابق الذكر.

(27) السنة المعقولة لذلك يجب ألا تقل عن 6 أو 7 سنوات.

(28) المرجع نفسه.

(29) المرجع نفسه.

(30) أبو عثمان الجاحظ، كتاب الحيوان.

(31) أصبح تعبير «اللغة الأساسية»، يعني في عرف الأمم المتحدة، أقوى اللغات عند الفرد. ويستعمل بدلا من تعبير «اللغة الأم».

(32) رسالة إلى الملتقى الدولي حول الفرنسية في المنظمات الدولية، باريس، 29 حزيران/ يونيه ـ 1 تموز / يوليه 1987.

(33) Marie-Josée Jastrab de saint-Robert. Le rapport langue - culture dans les organisations internationales: pour une sociologie des organisations internationales.

(34) المرجع نفسه.